مفهوم التأويليّة (*Hermeneutics*)

سماحة آية الله الشيخ جعفر السبحاني (*)

تعريب: محمّد حسن السالم

ملخص البحث

يبدأ سماحة الشيخ كلامه على الجذر اللغوي والاشتقاقي للفظة التأويليّة (Hermeneutics)، ورجّح الشيخ أنَّها كلمة يونانيّة يراد بها فنّ التفسير أو تفسير النصّ، ويقال أحياناً إنَّ هذا المصطلح لا ينفصل من جهة الجذور اللغويّة عن كلمة هرمس"hermes"، رسول الآلهة، وفي الواقع أنَّ (المفسِّر) يؤدِّي عمل (هرمس)، ويسعى إلى كشف معنى خطاب هرمس بوصفه وسيطاً يتولى نقلَ ما وُكِّل بتبليغه من قبل الآلهة، ويقوم بمهمّة الشرح والتوضيح لمضمون النصّ.

بعد ذلك يعرّج على مسائل تاريخية لمجموعة علماء ومفكرين غربيين أمثال: شلاير ماخر وديلتاي، وبول ريكور، وغادامِر، مخلصاً الأمر إلى نوعين من التأويل:

١. التأويليّة المعرفيّة.

٢. التأويليّة الفلسفيّة.

(*) أحد مراجع التقليد، وأُستاذ بارز في الحوزة العلمية في مدينة قم الإيرانية، من أشهر الباحثين المعاصرين في علم الكلام.

ثُمَّ يمضي الشيخ نحو التطبيق، ويذكر لذلك مثالين:

١. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[1]، وكيفيّة إثبات توحيد إبراهيم عليه السلام.

٢. قوله تعالى: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهَمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرى﴾[2].

وبعد ذلك، ولمجموعة من التطبيقات المهمّة يخلص الشيخ إلى أنَّ أولئك الذين يعتبرون أنّ دلالة ظواهر القرآن على المقاصد ظنيّة، يقللون من شأن القرآن الكريم ويخرجونه من دائرة كونه معجزة قطعيّة؛ ليظهروه على أنّه معجزة ظنيّة؛ لأنَّ قوام إعجاز القرآن في لفظه ومعناه، في جماليّة اللفظ من جهة وعلوّ المعنى من جهة أُخرى؛ فيعضد أحدهما الآخر؛ لإظهار الإعجاز، كلَّما كانت دلالة الظواهر على المقاصد الإلهيّة ظنيّة؛ فالنتيجة ستتبع أخسّ المقدمتين بالتأكيد؛ أي: أنّ إعجاز القرآن يكون ظنيّاً لا قطعيّاً.

مفهوم التأويليّة (*Hermeneutics*)

التأويليّة (Hermeneutics) كلمة يونانيّة يراد بها فنّ التفسير أو تفسير النصّ، ويقال أحياناً: إنَّ هذا المصطلح لا ينفصل من جهة الجذور اللغويّة عن كلمة هرمس"hermes"، رسول الآلهة، ولاشكّ أنَّ «المفسِّر» يؤدِّي عمل (هرمس)، ويسعى إلى كشف معنى خطابه بوصفه وسيطاً يتولى نقلاً ما؛ ووُكِّلَ بتبليغه من قبل الآلهة، ويقوم بمهمّة الشرح والتوضيح لمضمون النصّ.

ويرتكز تفسيرُ النصّ بشكلٍ عامّ على ثلاثةِ أُمور، سواء كان نصّاً دينيّاً، أو تأريخيّاً، أو علميّاً، كونه يشكّل حقيقة وهذه الأمور هي:

الأمر الأول: وجود النصّ في متناول المفِسّر.

الأمر الثاني: الهدف الذي يبتغيه كاتب النصّ.

الأمر الثالث: استناد المفسِّر في تفسير النصّ إلى آلياته وأدواته الخاصّة.

غير أنَّ فنّ المفسِّر: يتجسّد في اتباعه معايير صحيحةً في فهمٍ تامٍّ للنصّ؛ ليصل من خلالها إلى مراد المؤلِّف أو مقاصده، لذا نجد بعض الغربيين أمثال أغسطس ولف استعمل التأويليّة بمعنى العلم بقواعد الكشف عن فكر المؤلّف والمتكلِّم، بينما فسّرها (شلاير ماخر) (١٧٦٨- ١٨٣٤) على أنَّها بمثابة المنهج لأجل المنع من مخاطر حصول الخطأ في الفهم أو للحدّ من سوء الفهم، وهذا ما فتح الباب أمام ويليام ديلتاي (١٨٣٣- ١٩١١م)؛ إذ سعى إلى إخراج التأويليّة من مجال الفهم الضيّق المتمثِّل في إطار النصّ إلى مجال

الفهم الذي يتّسع لكلّ علوم الفكر؛ ليتخذها منهجاً جامعاً وشاملاً لتفسير جميع الظواهر الإنسانيّة، وبذلك يحقّق مفارقة منهجيّة بينها وبين العلوم الطبيعيّة؛ وفي الحقيقة هي نوعٌ من المنهج المعرفي للعلوم الإنسانيّة في مقابل المنهج المعرفي الخاصّ لفهم العلوم الطبيعيّة.

ويرى بول ريكور الذي يُعدُّ أحد أبرز الممثلين للتأويليّة المعاصرة، أنَّ التأويليّة نظريّة عمل الفهم في ما يرتبط بعلاقته بتفسير النصّوص، أيَّ أنَّ التأويليّة: العلم بقواعد الفهم وآلية تفسير النصّوص، وعلى أيّة حال فما طرح سابقاً ويطرح آنفاً حول تفسير النصوص (التأويليّة = Hermeneutics) كان معنيّاً بالجَنْبة المنهجيّة أكثر من كونها في دائرة المسائل الكلاميّة والفلسفيّة، وأولئك الذين تحدّثوا عن تفسير النصوص أو ما يُعرف بالتأويل حسب المصطلح الغربي، كمارتن هيدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦م) وغادامِر (١٩٠٠م) كانوا يهدفون من ذلك إعطاء معيار للفهم؛ ليتمكنوا من خلاله إخراج التأويليّة عن دائرة المنهج المعرفي وإدراجها في إطار المسائل الفلسفيّة.

ويحقّ لنا أن نتساءل - هنا- عن التحول الذي حصل عند هؤلاء؛ على أيِّ رؤية يستند، وكيف تسنّى لهم إحالة مسألة كانت تعدُّ في عداد المسائل المعرفيّة، إلى دائرة المسائل الفلسفيّة؛ هذا ما سنعاود إلى بيانه في ما بعد.

وبذلك سنكون أمام قسمين أو تفسيرين مختلفين للتأويليّة من الناحيّة الواقعيّة ويحتاج كلُّ قسمٍ منهما إلى بحث مستقل:

١. التأويليّة المعرفيّة.

٢. التأويليّة الفلسفيّة.

وقبل الخوض في القسم الأوّل، علينا أن نشير إلى نكتةٍ مهمّةٍ، هي أنَّ

مفهوم التأويلية ◈

التأويليّة في اللغة العلميّة المعاصرة قد اتخذت منحىً آخر؛ إذ تخطّت دائرة تفسير نصٍّ معيّن لتستعمل في فهم التأريخ (الحوادث التأريخيّة) وبالأخصّ مع ملاحظة وجود الفاصلة الزمنيّة بين المفسِّر ووقوع تلك الحوادث وهي ما يعبر عنها بالتأويليّة التأريخيّة لتشمل فهم العواطف والإحساسات؛ فهي تأويليّة علم النفس وبنحوٍ عامّ تستعمل لفهم العالم الخارجي، لتصل إلى فهم العالم الباطني والنفسي للأشخاص، عن طريق الرموز والألفاظ والأصوات، وبالطبع فالتأويلية طريقة لتعليم كيفيّة تشكّل الفهم وآليات حصوله؛ فلا ينبغي أن يثير استغرابَك لو قلنا: إنَّ التأويليّة تستعمل لتفسير الصور والنقوش، والتماثيل.

وما نحاول بحثه هنا يتحدّد في دائرة ضيّقة: وهي دائرة تفسير النصوص وخصوصاً في ما يرتبط بالنصوص الدينيّة وإن كان الملاك في الجميع واحداً.

التأويلية المعرفية

إنَّ النصّ الذي يدوّنه الكاتب تعبيراً عن نفسه يحمل في طيّاته رسالة يريد إيصالها إلى الجيل الحاضر والمستقبل، وبالطبع إنَّ هدف المفسِّر الكشف عن حقيقة تلك الرسالة، ولا يمكن عزل التفسير عن كشف مقصود المؤلِّف، ولا فرق من هذه الناحية بين النصوص العلميّة أو النصوص الدينيّة وبين غيرها من النصوص سواء تأريخيّة أم اجتماعيّة وفي الجميع يتوجه السعي والجهد للوصول إلى مراد المؤلف، لاسيّما ما يرتبط بالكتب السماويّة التي تهدف رسالتها نحو جلب السعادة إلى البشريّة، ومن هنا كانت المحاولات الجادة في تفسيرها بغية الوصول إلى المقصود الواقعي من النصّ; لأنَّ الانحراف عن تلك الواقعيّة ليس سوى الوقوع في مستنقع الضلالة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـذَا

﴿الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٣] والقرآن هو وحده الذي يهدي البشريّة إلى قوانين ثابتة بالتأكيد، مع أنَّ الكتاب السماوي يدعونا نحن المؤمنين للتفكر في آياته القرآنيّة؛ لنصل عن هذا الطريق إلى نيل المقاصد العالية للقرآن الكريم، وتجسيدها من حيث الفكر والسلوك؛ حيثُ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أم على قلوب أقفالها﴾[٤] وقال تعالى في آية أُخرى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٥].

هذه الآيات ونظائرها، موجودة بكثرة في الكتب السماويّة، كلّها تدعونا إلى حقيقة واحدة، وهي إنَّ الغرض من إنزال هذا الكتاب ليهدي الناس بالإيمان بمعيّة التدبّر والتفكر في آياته إلى استكشاف مقاصده الكامنة فيه والتي هي أيضاً تعبر عن مقاصد المرسِل، ومن ثُمَّ تجسيدها عمليّاً.

وعلى ذلك فلابدَّ أن يتوجّه جهد المفسِّر باتّجاه الكشف عن مقاصد المؤلّف، وإلّا لا يتحقّق للهداية معنى، ولا يؤتي التدبّر ثماره، ومن هذا المنطلق يكون تفسير النصّ عند علماء الإسلام ينطوي على جنبة منهجيّة لا فلسفيّة؛ وقد وضع كبار المفسّرين شروطاً للمفسر؛ ليتمكنوا في ضوء تهيئة تلك الشروط وتكييفها الوصول إلى المقاصد الإلهيّة، وكلّ ذلك حاكٍ عن أنَّ المفسرين الإسلاميين ينظرون إلى التفسير برؤية ذات طابع منهجي؛ ونتعرض من باب المثال إلى بعض أولئك المفسرين الذين طرحوا شرائط التفسير الصحيح بصورة منهجيّة، ومنهم:

أولاً: الحسين بن محمّد بن المفضل أبوالقاسم المعروف بالراغب الاصفهاني (م٥٠٢هـ) في كتابه القيّم الذي يحمل عنوان (مقدمة جامع التفاسير)، أورد شرحاً مفصّلاً حول شرائط التفسير والمفسِر نضع إجماله بين أيديكم.

إنَّ تفسير كتاب الله غير ممكن إلَّا في ضوء منهج العلوم اللفظيّة والعقليّة والموهبة الإلهيّة؛ ثُمَّ يتصدّى إلى تصنيف تلك العلوم على هذا النحو[٦]:

- معرفة الألفاظ ويتكفلها علم اللغة.
- مناسبة بعض الألفاظ إلى بعضها، وبيانها في عهدة علم الاشتقاق.
- معرفة ما يطرأ من أحكام على تلك الألفاظ، من الأبنية والتصاريف والإعراب وهو في عهدة علمي الصرف والنحو.
- ما يتعلّق بذات التنزيل، وهو معرفة القراءات المختلفة.
- معرفة شأن نزول الآيات خصوصاً ما يرتبط بسيرة السابقين وهو ما يُعبّر عنه بـ(علم الآثار والأخبار).
- ما توافر نقله عن رسول الله صلى الله عليه وآله من وجود المجمل والمبهم في القرآن، نظير قول رسول الله هناك أُمورٌ مرتبطة بالصلاة والزكاة ورد تفصيلها في سنّة النبي صلى الله عليه وآله.
- معرفة الناسخ والمنسوخ، العامّ والخاصّ، والمجمع عليه والمختلف فيه، وهو ما يتكفل البحث عنها في علم الأصول.
- الاطّلاع على أحكام الدين وآدابه والسياسات الإسلاميّة، وهي ما يبحث عنها في علم الفقه.
- معرفة الأدلّة والبراهين العقليّة التي يجري النقاش حولها في علم الكلام.
- علم الموهبة، وهو العلم الذي يهبُه اللهُ لمن يقرن العلمَ بالعمل به إذ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام لابدَّ للحكمة أن تظهر يوماً وقال: (من أرادني فليعمل بأحسن ما علم). ثُمَّ يستطرد الراغب قائلاً: إنَّها لموهبة إلهيّة تحصل في

ظلّ العمل الصالح، وهو الهداية المزيدة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[٧] فالذين وُفِّقوا للهداية وعملوا بما علموا؛ ضاعف الله هدايتهم.

ثمَّ يضيف الراغب، إنَّ من تكاملت عنده هذه العلوم واستعملها مع الموهبة الالهيّة لهي كفيلة بإخراج المفسِّر عن التورط في أيِّ نوع يعدّ تفسيراً بالرأي (أي التفسير بنحو التحكم).

إذ إنّ التفسير بالرأي غير معني بتلك الأدوات والآليات المتبعة في التفسير وهي الأُمور العشرة الآنفة الذكر، ومن الطبيعي أن يتّبعَ هؤلاء التخمينات والظنون، ولذا إذا صدر هكذا عملٌ عن شخصٍ يُعدّ عملاً خاطئاً، وإن كان قد أصاب الواقع، لأنَّ القرآن المجيد يصدّق أولئك الذين يشهدون بالحقيقة عن علم فيقول: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٨].

وهذا العرض لكلام الراغب يهدف لبيان أنَّ التفسير على طيلة مراحله التأريخيّة التي مرّ بها اعتمد فيه المفسرون في تفاسيرهم للقرآن الكريم تلك الطرائقَ التي لا تقبل الخطأ أو يقلُّ فيها الخطأ في مقام الوصول إلى المقاصد الإلهيّة[٩].

ثانياً: ما طرحه بدر الدين محمّد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥-٧٩٤ هـ) من بحث مفصّل في المقام في كتابه القيّم البرهان في علوم القرآن[١٠].

ثالثاً: عرض جلال الدين السيوطى (٨٤٨ -٩١١هـ) مؤلف كتاب (الإتقان في علوم القرآن) الأسلوب الصحيح في تفسير القرآن الكريم بشكلٍ مفصّل، وقد استفاد أيضاً من كلمات الراغب الأصفهاني والزركشي[١١].

رابعاً: ما حرّره قاطفُ ثمارَ علوم المفكرين الإسلاميين كاتب هذه السطور فصلاً حول آداب هذا التفسير ومنهجيته الصحيحة، في كتاب الميثاق

الخالد (منشور جاويد)[١٢] تجنبنا نقلها؛ لأنَّه يوجب إطالة الكلام.

ولم ينحصر كلام المفسرين الكبار على ضرورة وجود المنهج الصحيح في خصوص القرآن، بل حتى تفسير أحاديث النبي وبقيّة روايات الأئمة المعصومين غير مستثناة من تلك القاعدة؛ ويعتمد التفسيرُ السليمُ ركيزتين أساسيتين:

الركيزة الأولى: صدور الحديث عن المعصوم منقولًا بسندٍ صحيح.

الركيزة الثانية: تفسير النصّ عن طريق استعمال قوانين اللغة، وبقية الشرائط التي ذكرت في علم الحديث، وبالاستفادة من العلوم التي أُسّستْ قواعدُها منذ بزوغ فجر الإسلام، علاوة على جمع أحاديث المعصوم، وتدوين كتب تفسيريّة حول الأحاديث، وإن كان لصحيحي مسلم والبخاري شروح، فإنَّ الكتب الأربعة عند الإماميّة حظيت هي الأُخرى بشروح موسّعة جداً، وعلى سبيل المثال نجد العلامّة المجلسي له شرح على الكافي في ٢٥ مجلداً يُسمى (مرآة العقول) كذلك (التهذيب)، وللشيخ الطوسي كتاب يضم ١٠ مجلدات يسمى (ملاذ الأخيار) عرضه بعنوان كونه تفسيراً للأحاديث.

وكان المغزى من عرض هذه الشواهد التدليل على أنَّ المفسرين للكتب السماويّة في المشرق الإسلامي عموماً وفي الوسط الإسلامي على وجه الخصوص كان الدافع لهم قبل مجيء التأويليّة الجديدة هو كشف الواقعيّات ومقاصد المؤلّف لا غير.

التفسير بالرأي أو المسبّقات

يأتي التفسير بالرأي انطلاقاً من فرضيّة أنَّ الهدف من التفسير يكمن في كشف الواقع لا غير، وقد حذّر نبيُّ الإسلام صلى الله عليه وآله أمّته عن التفسير بالرأي،

وتصدّى له بشدة، وتوعّد أولئك الذين يحاولون إسقاط أحكامهم المسبقة على تفسير القرآن بالعذاب الإلهي، ولذا نجد المفسرين كثيراً ما ينقلون في كتبهم حديث النبيﷺ: (من فسّر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)[١٣].

القرآن والتفسير بالباطن

ذكر المفسرون الإسلاميّون كما تلقيّنا ذلك عنهم ضوابط محدّدة لتفسير القرآن ينبغي أن لا يتخطاها المفسّرون، ومن تلك الضوابط:

وجود معانٍ بعيدة عن مرمى دلالة الآيات القرآنيّة فلا ينبغي إسقاطها على تفسير الآية؛ لأنَّ إسقاط هكذا معنى لا شاهد عليه من الآية نفسها أو آيات أُخرى يعدّ تفسيراً باطنيّاً لا ينسجم وقواعد التفسير تماماً، وفتح هذا الباب أمام المفسِّر ليس سوى اللعب بالوحي الإلهي، ولا يفهم من ذلك أنّنا ندعو إلى عدم إعمال الدقّة والتدبّر في آيات القرآن في سبيل الوصول إلى الحقائق الكامنة فيه، بل أنَّ الإمعان والتدبر أحدُ أهمِّ وظائف المفسِّر؛ بل نريد أن نقول لمن يفسِّر الآية لابدَّ أن يملك شاهداً ودليلاً في الآية أو الآيات الأُخرى على استنتاجه، وحينما لا يملك أيَّ شاهدٍ على تفسيره للآية، وبالنتيجة كان ذلك ناشئاً من إسقاط أفكاره الشخصيّة على النصوص فحينئذٍ قد فسّر القرآن برأيه، وأبرز مثالٍ على ذلك هو تفسير ما يُسمّى بمذهب (الباطنيَة).

ويعتقد أصحابُ هذا المذهب أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ونسبة ظاهره إلى باطنه كنسبة القشر إلى اللبّ، وكلّما توصلنا إلى باطن القرآن، فلا نحتاج إلى العبادة والطاعة؟! ويعّدون قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[١٤] شاهداً على مدّعاهم.

ولكشف خواء هكذا نوع من التفسير نستعرض الأمثلة الآتية:

• يراد بـ (الصلاة) في قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[١٥] أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله بإرشاداته ينهي الناس عن المنكرات.

• إنَّ (الزكاة) الواردة في الآيات القرآنيّة يُراد بها تزكية النفس عن طريق تعلّم المعارف الدينيّة.

ج) إنَّ (الجنّة) في الآيات القرآنيّة تعني: أن يصل الإنسانُ إلى اليقين، ويحرّر نفسَه من مشقّة التكاليف الإلهيّة[١٦].

ولاشكَّ أنَّ فتح هكذا بابٍ في تفسير القرآن إنَّما يهدف إلى هدم الكتاب الإلهي؛ وهو نوع لعب بالوحي الإلهي لا غير.

ويندرج فيه كلّ من يتصدّى لطرح تفسيرٍ جديدٍ لآيةٍ، تحت شعار (قراءة جديدة للدين)، وهنا قد يطرح سؤال: أنَّ النبي صلى الله عليه وآله بيّن في إحدى خطبه (إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَاهِراً وَبَاطِناً)، وهكذا نبّه (وَلَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ)[١٧] وعليه كيف يمكن للمفسّر أن يصل إلى باطن القرآن إذا كان التفسير بالباطن منهيّاً عنه، ولماذا يفصح النبي صلى الله عليه وآله عن أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً.

والإجابة عن هذا السؤال: واضحة، فإنَّ المراد من الباطن وجود معانٍ متداخلة ويُعبّر عنه في الاصطلاح (ذات مراتب)، وهي: الآية التي يمكن الانتقال فيها من المعنى الأوّل إلى المعنى الثاني الأعمق والأدق، ولكن جميع هذه المعاني متشابكة ومترابطة ترابط اللازم والملزوم، بحيث تكون كلّها لها أصل في ظاهر الآية، يدلل عليها بلفظٍ أو جملة من الآية، وهكذا نوع من التفسير غير منهيٍ عنه قطعاً، بل جائز، وهو بمعنى من المعاني شاهد على عظمة القرآن.

ولبيان هذه الحقيقة نذكر مثالاً إذ يتحدّث القرآن عن براهين نبي الله ابراهيم (عليه وعلى نبينا وآله آلاف التحية والسلام) على إبطال ربوبية النجم والقمر والشمس ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[18] وكرّر البرهان نفسه على النجم والقمر حينما تغيّب، والدليل نفسه يمكن تفسيره على أنّه من قبيل المعاني المتداخلة، فإنّ الثاني أعمق من الأوّل وكذا الثالث أعمق من الثاني، وتحصل هذه المعاني في ظل التدبر في مضامين الآيات، والآن نشير إلى هذه المعاني:

المعنى الأول: إنَّ ارتباط مصير الإنسان بيد ربّه، صار يستمدّ فيضَه منه بفعل هذا الارتباط؛ ولذا فلابدَّ أن يكون حاضراً وناظراً، والربّ الغائب والآفل الجاهل بمربوبه كيف يمكنه أن يكون عالماً باحتياجاته حتّى يرفع عنه الاحتياج ما دام هو كذلك ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

المعنى الثاني: إنَّ الربّ هو ذلك الموجود القاهر والمتعال، الحاكم على الإنسان والعالم، ولا مجال للمقهوريّة والتسخير في ساحته، مع أنَّ النجم والقمر والشمس مع حركتها المستمرة مرتبطة ومقهورة لقدرة مهيمنة، هي التي سحبتها بسلسلة التسخير، ومرتبطة بأوامر سلطة عليا؛ إذنْ لابدَّ أن نتوجّه إلى تلك النقطة العليا ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾.

المعنى الثالث: إنَّ حركة الأجرام السماويّة لا يمكن أن تكون بلا غاية، فهي إمّا من النقص إلى الكمال أو من الكمال إلى النقص، والثانية غير معقولة في الحركة، والأُولى لا تتناسب وشأن الرب؛ لأنّها ناقصةٌ وعاجزةٌ، وبالحركة تريد أن تنال كمالاً، فكيف يمكن أن تكون ربّاً للإنسان والعالَم؟.

وعبر التدقيق في هذه المعاني الثلاثة يتضح لنا أنَّ هذه المعاني مع كونها

معاني باطنيّة للآية، لا يعني أنَّها معزولةٌ عن الظاهر، أو تنفي المعنى الظاهري للآية؛ على الرّغم من أنّ المذهب الباطني يؤمن بأنَّ الباطن عنده يتنافى والمفاد الظاهري للآية ويطرحه جانباً.

ويدّعي أحد العرفاء المعروفين أنَّ قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا**﴾[١٩] أي: كيف بسطه، وهي صريحة في الوجود المنبسط، وهو الوجود الذي أحاط بهياكل الماهيّات، وأستغشاها بفيضه وجعلها في وعائه.

ومن المسلَّم أنَّ تفسير هذه الآية بالوجود المنبسط يعدّ مصداقاً للتفسير بالرأي المنهيّ عنه، ولا أصل له في ظاهر الآية على الإطلاق، ومراجعة الآية نفسها والآيات التي قبلها وبعدها، لا يُبقي مجالاً لأدنى شكٍّ في ظهور الآية؛ حتّى نفسرها بهكذا مضمون.

ومن هذا المنطلق لا يمكن البناء على صحّة تفاسير كثير من العرفاء؛ فهم يقولون: إنَّ المراد من جبرئيل العقل الفعّال، ومن ميكائيل روح الفلك السادس، وإسرافيل روح الفلك الرابع، وعزرائيل روح الفلك السابع.

ويمكن معاينة ما صُرّح في تأويل قوله تعالى: ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ**﴾[٢٠] إنّهما بحران سيّرهما بحيث يلتقيان، وبينهما حدٌّ فاصل لا يصطدمان ببعض، والمراد من البحرين هما بحر الهيولا الجسمانية - والذي يكون في الحقيقة مالحاً ومُرّاً (آسنا)- وبحر الروح المجرد - وهو البحر العذب اللذيذ- وهما يجتمعان في الوجود الإنساني، ووجود برزخ بين الهيولا الجسمانيّة والروح المجرد يسمّى بـ(النفس الحيوانيّة) يحوي صفاء ولطافة الروح المجردة وليس كثرة الأجساد الهيولانية؛ ولا شكَّ أنَّ هكذا نوعٌ من

التفسير يُعدُّ من أبرز مصاديق التفسير بالرأي، ولا يكتسب أيّة قيمة علميّة.

وغالباً ما يكون لهؤلاء نظريات مسبقة بغضّ النظر عن أسبابها أي: تكون عندهم ثُمَّ يبحثون على شاهدٍ ودليلٍ يثبت أو يؤيّد صحّة ما يذهبون إليه، ويكثر مثل هكذا نوع من التفاسير الباطنيّة في كتب الفرقة الاسماعيليّة؛ وقد تعرضنا لها في الجزء السابع من كتابنا (بحوث في الملل والنحل).

أمّا كتاب مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار الذي نُسِب خطأً إلى عبد اللطيف الكازروني وهو من تأليف أبي الحسن بن محمّد نباتي الفتوني (١١٣٩ م) فيُعدُّ تفسيراً للقرآن جاء في ثلاث مقدمات وخاتمة، واشتملت مقدّمته الأُولى على ثلاث مقالات، والثانية على مقالتين. وسعى في المقدّمة الأُولى للكلام على التأويل وباطن القرآن، ليقول: إنَّ كلّ ظواهر آيات القرآن لها باطن هي تأويل القرآن، وباطنها إشارةٌ إلى ولاية الأئمة أو مخالفيهم، وذكر في المقدمة الثالثة نماذج لذلك[٢١]، وهذا النوع من التفسير الباطني يطلق يد الأعداء ليُفسِّروا آيات القرآن بما ينسجم ومآربهم؛ والجدير بالمفسِّر الإسلامي أن يبتعد كثيراً عن هذه التأويلات التي لا أساسَ لها في ظاهر القرآن، إلَّا أن يكون لديه دليلٌ قطعيٌّ من الراسخين في علم القرآن، ولابدَّ من الوقوف على ما دلَّ عليه الدليلُ القطعي، على أنَّه يمكن أن يُعدُّ تفسيراً خاصّاً يرتبط بأُولئك الخواصّ الذين يدركون هكذا نوع من التفسير وليس تفسيراً عاماً.

التأويل في القرآن

اسْتُعمِلَ التأويلُ في القرآن على نحوين:

أ) التأويل في مقابل التنزيل.

ب) التأويل في موضع المتشابه.

ويستعمل التأويل في لغة العرب بمعنى مآل الشيء ونهايته[٢٢]، ويستعمل التأويل تارةً في مقابل التنزيل، وأُخرى في مورد المتشابه، وعليه لابدَّ من الكلام على كلا الموردين؛ لأنَّ كلًّا من التأويلين له معنى يخصه.

أولاً: التأويل في مقابل التنزيل

إنّ المعاني الكليّة الواردة في القرآن الكريم على نوعين، تارةً تكون مصاديق واضحة وأُخرى خفيّة وغامضة، وتطبيق الآية على المصاديق الواضحة هو (التنزيل) وتطبيقها على المصاديق الخفيّة هو (التأويل)؛ خصوصاً تلك المصاديق التي تظهر بمرور الزمان وليس لها وجود في زمن النزول.

وبعبارةٍ أُخرى: إنَّ تطبيق المفهوم الكلي للآية على المصاديق الموجودة زمن نزولها هو (التنزيل) وتطبيقها على المصاديق التي تظهر عبر الأزمنة هو (التأويل)، وهذا هو الأساس الذي ترتكز عليه المباحث الاجتماعيّة في القرآن الكريم والاستنتاجات المستمرّة منه، وليس من الصحيح في مقام الاستفادة من القرآن الكريم الاكتفاء بالمصاديق الموجودة في عصر النزول، أو بالمصاديق الواضحة فحسب.

لذا نجد في حديث الإمام الصادق عليه السلام وصفاً للقرآن يعلن فيه عن هذه الثنائية حيثُ يقول عليه السلام: (ظَهْرُهُ تَنْزِيلُهُ وَبَطْنُهُ تَأْوِيلُهُ مِنْهُ مَا قَدْ مَضَى وَمِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَجْرِي كَمَا يَجْرِي الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)[٢٣]. فكما أنَّ الشمس والقمر لا ينحصران في منطقة معيّنة كذلك القرآن لا ينحصر بفئةٍ خاصّة أو أشخاص، فقد جعل (التأويل) في مقابل(التنزيل)، وفسّر التأويل بمعنى تطبيق المفاهيم الكليّة على المصاديق، والتي كان بعضها موجوداً في الزمن السابق، وبعضها

يتحقّق في المستقبل، كما يقول الإمام الصادق في حديث آخر: «إِذَا نَزَلَتْ آيَةٌ عَلَى رَجُلٍ ثُمَّ مَاتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مَاتَتِ الْآيَةُ- مَاتَ الْكِتَابُ وَلَكِنَّهُ حَيٌّ يَجْرِي فِيمَنْ بَقِيَ كَمَا جَرَى فِيمَنْ مَضَى»(٢٤). فيبقى مضمون الآية باعتباره يمثّل قانوناً كليّاً، ولا ينحصر تشبيه القرآن بالشمس والقمر في الحديثين المذكورين، بل وردت أحاديث كلّها حاكيةٌ عن أنَّ القرآن لا ينقطع حي وغض طري لكلّ زمان لا يندرس ولا يبيد، وما تدوم حياةُ القرآن وحركيّتهِ إلّا في ظلّ ذلك التأويل في مقابل التنزيل، ولا ينبغي أبداً حصر القرآن بفئة معينّة، بل لابدَّ من تطبيقه عبر الأجيال الآتية بالنحو الذي تمّ تطبيقه على الأجيال الماضيّة.

ويقول تعالى في سورة الرعد: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَاد**﴾(٢٥) بل نجد النبيّ الأكرم نفسه في روايات متواترة طبّق جملةً في قَوْلِهِ ﴿**إِنّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلكلّ قَوْمٍ هادٍ**﴾ حيثُ قَالَ: (أَنَا الْمُنْذِرُ وَأَنْتَ يَا عَلِيُّ الْهَادِي إلى أَمْرِي)(٢٦)، ومن المسلَّم أنَّ الآية لها مصاديق كثيرة بعد أمير المؤمنين عليه السلام تنطبق عليها بمرور الزمان، والطابع العام للحركة التنويرية القرآنيّة تتمثّل في تطبيقه على المصاديق عبر العصور؛ ولذا يقول الإمام الباقر عليه السلام: (قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَنَا الْمُنْذِرُ وَعَلِيٌّ الْهَادِي وَكلّ إِمَامٍ هَادٍ لِلْقَرْنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ)(٢٧) اتّضح لنا أنَّ المقصود من التأويل في مقابل التنزيل هو ذلك الصنف من مصاديق الآية أو الآيات التي لم تكن موجودة حين نزول القرآن ثُمَّ حصلت فيما بعد؛ وعلى فرض أنّهما كانت موجودة حين النزول فهي كانت من المصاديق الخفيّة التي تحتاج إلى الكشف عنها ولنذكر مثالاً لكلا الموردين:

المثال الأول: ما حصل في حرب الجمل حيث وُضِعَ جيشُ الإمام في

مقابل جيش الناكثين «طلحة» و«الزبير» اللذين نقضا بيعتهما للإمام وقبل بدء المعركة وجّه الإمام نداءه إلى أهل البصرة مخاطباً إيّاهم: يا أهل البصرة هل رأيتموني أقضي بالظلم؟ هل ارتكبتُ الظلم في تقسيم المال؟ وهل خصّصتُ المالَ لي ولأهل بيتي وحرمتكم منه؟ وهل أجريتُ الحدود الالهيّة في حقكم وعطّلتُ الحدود في غيرِكم حتّى تنكثوا العهود والمواثيق لأجلها أو لواحدة منها؟

فأجابوه: كلا لم تفعل شيئاً من هذا، وحينها أتمّ الحجّة عليهم، وأخذ يُنظِّم صفوف الجيش وتلا قولَه تعالى: ﴿**وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ**﴾[٢٨].

وحينئذٍ أضاف الإمام قائلاً: والله الذي فلق الحبّةَ، وخلق الإنسَ، واختار محمداً نبياً فيهم هذه الآية قد نزلت، ومن اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية لم يحصل نقضٌ للعهد في الحرب[٢٩]، وتطبيق هذه الآية على هذه الفئة هو تأويلٌ لها وبيانٌ لأحد مصاديقها مع أنَّ ذلك المصداق لم يكن موجوداً في ظرف نزول الآية.

المثال الثاني: ما حصل في (صفيّن) اليوم الذي وُضِعَ جيش الإمام عليعليه السلام في مواجهة مع جيش معاويّة وحيثُ كان عمّار بن ياسر ضمن جيش الإمام، وهكذا دخل جيش الإسلام في مواجهة مع الحزب الأموي - وعلى رأسهم أبو سفيان ومن بعده معاوية - مرتين:

الأولى: في عهد الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله حينما قاد أبو سفيان معركتي (بدر) و(الأحزاب).

الثانية: في عهد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالبعليه السلام عندما استلم معاوية

ابن أبي سفيان زمام الأمور وقاد الحزب الأموي بصورة سريّة، وحمل عمار بن ياسر على جيش معاوية وهو يردد أبيات نذكر أوّل بيتين منها:

نحن ضربناكم على تنزيله فاليوم نضربكم على تأويله[٣٠]

فقد جعل عمار (التأويل) في مقابل (التنزيل)، وطبّق قولَه تعالى (جاهد الكفار) على الحزب الأموي إذ كانوا ظاهري الكفر في زمن النبي واعتبَرَ تنزيل القرآن الكريم وتطبيقه على الحزب في عهد عليعليه السلام - إذ كانوا يبطنون الكفر ويتظاهرون بالإسلام- تأويلاً للقرآن. وهذا العرض يكشف لنا أنَّ التأويل في مقابل التنزيل ليس سوى تطبيق الآية على المصاديق الخفيّة أو المصاديق التي تتحقّق بعد نزول الآية.

والنبي الأكرم هو الذي يخاطب أمير المؤمنين، فيقول: (فَتُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتَ مَعِي عَلَى تَنْزِيلِهِ ثُمَّ تُقْتَلُ شَهِيداً تُخْضَبُ لِحْيَتُكَ مِنْ دَمِ رَأْسِكَ)[٣١]. وعند ملاحظة هذه الروايات يثبت لنا أنَّ (التأويل) في مقابل (التنزيل) هو تطبيق المفاهيم والأحكام الكليّة نفسها على المصاديق الخفيّة والغامضة، أو المصاديق التي كانت موجودة في ظرف نزول القرآن. وإذا أطلقنا عليه التأويل في مقابل التفسير، فهو اصطلاح مخالف لظهور هذه الروايات؛ بل أنَّ هكذا نوع من التأويل إنّما هو في مقابل التنزيل.

التأويل في مورد المتشابه

ومن المواضع التي يستعمل فيها (التأويل) هو المتشابه، ولتحليل عمليّة التأويّل في المتشابه نجد أنفسنا مضطرين لتفسير المتشابه في مقابل المُحَكم.

لقد قسّم القرآن الكريم آياته المجيدة على قسمين، فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[٣٢]. ولابدَّ من معرفة ما المراد من هذا التقسيم، ودلالة آيات القرآن على مقاصده ليست على نسق واحد، فتارةً تكون دلالته على معانيه واضحة ولا يطرأ عليها الشك والترديد وفي أوّل ملاحظة لها ينسبق مفهومها الواضح إلى الذهن، من قبيل النصّائح التي يسديها لقمان لابنه، أو وصايا القرآن الحكيمة في سورة الإسراء الواردة في الآيات (٢٢-٣٩).

يقول لقمان في معرض نصيحته لابنه: ﴿لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٣٣]. ويقول: ﴿أَقِمْ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾[٣٤].

وهكذا نستحضر واحدة من آيات سورة الإسراء كمثال على ذلك: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٣٥] وجميع هذه الآيات هي من محكمات القرآن، التي تعد أم الكتاب وأصله.

ونجد بين تلك الآيات صنفاً آخر من الآيات ليست دلالتها على المقصود بالوضوح نفسه الذي اشتملت عليه الآيات الآنفة الذكر، ومع ملاحظتها ابتداءً ترتسم في أذهاننا احتمالات متعددة، ويبقى المعنى الواقعي يشوبه الإبهام والغموض، ولأنه يحصل تشابه بين المراد الواقعي وغير الواقعي، فتسمى هذه الآيات بالمتشابهة. وهنا تكمن وظيفة الباحثين عن الواقع المتمثلة بضرورة رفع الغموض والإبهام عن هذه الآيات المتشابهة بالرجوع إلى الآيات المحكمة، ورفع الترديد والتشابه عن وجه هذه الآيات، حتّى تخرج الآية المجملة عن دائرة الآيات المتشابهة لتكون في عداد المحكمات.

ويعد هذا العمل من وجهة نظر القرآن، من اختصاصات الراسخين في

العلم والمطّلعين على حقائق القرآن.

نعم، قد تنبري فئة منحرفة ذاتُ خلفيات فكريّة لا هدف لها سوى إيقاع الفتنة فتتمسك بالظاهر المتزلزل بدون العودة إلى المحكم من أجل أن يحقق مُحدثو الفتن أهدافهم مع أنّ الظاهر المتزلزل ليس له قيمة عند الراسخين في العلم ويتحرّون الواقع من خلال التدبر في مفاد الآية والقرائن الحافّة بها وخصوصاً ملاحظة الآيات الأُخرى ليمنحوا دلالة تلك الآيات استحكاماً أكثر، ولنعرض بعض الأمثلة على ذلك:

لقد وصف القرآنُ اللهَ تعالى في سورة طه بأنَّه: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**﴾[٣٦] والاستواء في لغة العرب تعني الاستقرار، كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**﴾[٣٧].

ونجد أنّ الأشخاص الذين يحملون أحكاماً مسبَّقة ويميلون إلى التجسيم والتشبّيه يفسرون سورة طه هكذا: المراد من استواء الله على العرش هو جلوس الله على كرسيّه وعرشه، وفي الحقيقة هم تصوروا أنَّ لله كرسياً يشبه كرسي الملوك يجلس عليه، ولكن هكذا ظهور يُعَد ظهورا بدوياً للآية، مع أنّ مثل هكذا آيات تحتاج إلى ملاحظة القرائن المحيطة بالآية والآيات الأُخرى وحينئذٍ يتم التوصل إلى معناها الحقيقي.

ومن باب المثال نتصدى لتأويل هذه الآية من خلال إرجاع ظاهرها إلى معناه الواقعي ابتداءً لابدَّ من الالتفات إلى عدم وجود التعارض بين الآيات مع أنّ صريح القرآن يصف الله تعالى بأنه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[٣٨] وفي آية

أخرى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾[٣٩] وفي ثالثة: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[٤٠]. وهذه الآيات التي تنفي النظير والمثل لله وتعتبره أجلّ مما يدركه من أمثالنا ومن هنا الاعتقاد بوجود هكذا إله يقتضي منّا الدقّة والتدبّر أكثر في معنى تلك الآية لنصل إلى مآلها.

ويمكن التوصل إلى المعنى الواقعي للآية من خلال التركيز في ثلاثة أمور:

- الاستواء في القرآن واللغة.
- معنى العرش في اللغة والعرف.
- القرائن التي تحيط بالجملة في الآيات السبع.

وبتحليل هذه الأمور الثلاثة سنكون أمام نتيجة مفادها: أنْ لا ربطَ لهذه الآية في جلوس الله على الكرسيّ، وذلك بعد أن نقوم بإيضاح تلك الأمور الثلاث بنحو الاختصار:

١. الاستواء في القرآن واللغة

حينما يريد القرآن أن يتحدث عن الجلوس يستعمل كلمة (القعود) فيقول: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[٤١] ويقول أيضاً: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾[٤٢]. في الوقت الذي يستعمل لفظ الاستواء في التسخير والتسلط، بل حتّى في الموارد التي يكون التسخير والتسلط مصاحباً للجلوس، واستعمال هذا اللفظ إنّما هو بلحاظ الهيمنة التي تحصل للجالس بصرف جلوسه؛ ولذا نجد القرآن يستعمل كلمة (الاستواء) حينما تحدث عن الزرع الذي يتخطى حالة الضعف إلى حالة القوة

وينتهي بالثبات على ساقه بسبب الاستحكام والقوة، فيقول: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾[٤٣].

وكلنا يعلم أنّ الزرع ليس له قيام وقعود، بل المراد سيطرته على نفسه أمام الحوادث والرياح الشديدة فلا تستطيع قلعه.

وكذلك تُستعمل كلمة الاستواء في ركوب الإنسان في السفينة أو على الدابة حيثُ يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾[٤٤].

لاشك أنَّ لفظ الاستواء في هذه الآية يدلُّ على استقرار الإنسان على هذه المراكب الجموحة، لكنه ليس المقصود به الجلوس والقعود، بل يراد به حالة التسلّط والاستيلاء التي تحصل للراكب على ذلك المركب وجعل زمامها باختياره يسوقها كيفما شاء؛ كما يشهد على ذلك ذيل الآية: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

وفي آية أُخرى يأمر نوحاًعليه السلام: أنَّه حينما يكون قد استوى هو والمؤمنون على السفينة فيجب عليهم الشكر، لأنَّ الله هو الذي أنجاهم من الظالمين: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٤٥].

وليس المراد من استويت في هذه الآية هو الجلوس أو القعود وإلّا لقال (فإذا جلست) أو (قعدت) كما انه ليس المراد منه الركوب وإلا لقال(ولو ركبت)، وفي هذا السياق يتكلم عن نوحعليه السلام حينما دعا ولده للركوب في السفينة فإنَّه استعمل كلمة (الركوب) وقال: ﴿يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾. بل المقصود تسلط نوحٍ والساكنين معه على السفينة في الأخذ بدقّة السفينة وتوجيهها أمام

الأمواج كما قال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[٤٦].

فقد تسلطوا وسيطروا على هكذا مركب جارف عابر للقارّات، فأمرهم الله بأن يحمدوه: (قل الحمد لله) إذن فهذه الآيات وآيات أُخرى تحكي لنا عدم صحّة تفسير الاستواء بالجلوس والقعود، أو الاستقرار المادي، بل يراد به الاستيلاء والتسلّط التواؤم مع الشخص المستولي، واستيلاء كلّ شيءٍ بحسبه، وكثيراً ما صادف في اللغة العربيّة استعمال كلمة (الاستواء) بمعنى (الاستيلاء)؛ فيقول الأخطل عن بشر اخ عبد الملك الذي تسلّط على العراق:

قد استوى بِشْرٌ على العراق ... من غيرِ سيفٍ ودمٍ مهراقِ

وقال شاعر آخر:

فلما علونا واستوينا عليهم ... تركناهمُ صرعى لنسرٍ وكاسرِ

فلم يجرِ الكلام في هذه الموارد عن الجلوس والقعود أبداً، بل المراد هو الفتح والانتصار والتسلّط والاستيلاء، وهذا بنفسه يكشف لنا عن أنّ المعنى الأصلي للكلمة هو الاستيلاء، وإذا كان تواؤم مع الجلوس والقعود فهو ناظر إلى خصوصيّة في الجالس.

فالإمعان في هذه القرائن هو الذي أوصلنا إلى معنى كلمة استويت وفي الحقيقة إنّ التأويل في هذا المورد بمعنى تحرّي فهم الآية عن طريق الدّقّة في معانيها ومفرداتها، ولذا لابدَّ من إعمال هذا الاستقصاء والتحري عن كلمة (العرش).

٢. معنى العرش في اللغة والعرف

والعرش في اللغة والقرآن بمعنى السرير والمقعد الذي يجلس عليه أصحاب السلطة والمقتدرون وكما عبر القرآن عن عرش بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ

كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[٤٧]. وهو تعبير عن أنَّ العرش كـان مظهـراً للقـدرة والسلطة في الحقيقة. وعبّر عنه في اللغة الفارسية بلفظ «تخت» ويقول الـشاعر العربي:

إذا ما بنو مروان ثلث عروشهم وأودتْ كما أودتْ إيادٌ وحِمْيَرُ

كما يشير مدلول العرش في الأدب الفارسي إلى علامة الـسلطة والحكـم، وعكسه علامة على فناء الحكم وزواله، يقول صادق سرمد عن فراعنة مصر:

تو تخت ديدى ومن بخت واژگون برتخت تو عاج ديدى ومن مشت استخوان ديدم[٤٨]

ومن المسلّم أنّ المراد من السرير في هكذا نـوع مـن المحـاورات، كـرسي الخـشب والحديـد، ولـيس المـراد بـالزوال والفنـاء الانقـلاب والانتكـاس الظـاهري، بـل الجلـوس عـلى الكـرسيّ دليـل العـزة والعظمـة والانقـلاب والنكوس كناية عن زوال السلطة والحكومة.

والنكتة في كون العرش يؤخذ على أنّه كناية عن البقاء في السلطة والقدرة هي إنّ الأمراء والسلاطين السابقين كانوا يـديرون شـؤون البلـد مـن خـلال سرير يسمونه العرش، أمّا الوزراء والمقربون مـن الملـك فيحيطونـه كالحلقـة، فينطلق الحاكم من هذا المكان لإصدار أوامـره لإدارة أمـور البلـد؛ ومـن هنـا تكون الأمة تحت قيادته، ولهذا يطلق عليه العرش أو الجلوس على العـرش أو الاستيلاء على العرش؛ وكلّ ذلك كناية عن السلطة والقدرة.

وفي الختام نقـول: في الوقـت الـذي يكـون العـرش والـسرير والأريكـة بمعنى واحد لكن كلمة العرش تستعمل غالباً في مظهر القدرة والـسلطة مـع ذلك استُعمِل اللفظـان في الـسرير الطبيعـي الـذي يـستريح عليـه الإنـسان؛ فسليمان عليه السلام حينما أراد إحضار عرش بلقيس استعمل كلمـة العـرش ﴿أَيُّكُـمْ

﴿يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(٤٩).

ولكنه حينما يتحدث عن السرير بمعنى المكان الطبيعي يستعمل كلمة السرير أو الأريكة فيقول: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾(٥٠).

وفي موضع قرآنيٍّ آخر ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾(٥١).

وقد اطلعنا على مفردات الآية حتّى الآن، ومع ملاحظة القرائن الموجودة في الآية بإمكاننا أن نتوصل إلى المراد الواقعي منها.

وحينما تحدث القرآن عن استواء الله على العرش في موضع من المواضع؛ فيريد بما قبل الآية وبعدها غالباً الإشارة إلى بيان مظاهر العظمة الإلهية.

والآن نقوم ببيان آيتين من بين هذه الآيات السبع:

١. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٥٢).

٢. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(٥٣).

وقد جرى الكلام في هاتين الآيتين على مظاهر القدرة الإلهية وتدبير عالم الخلقة بتعابير مختلفة نشير إلى أهمها:

١. إنّ الله خلق السموات والأرض في ستة مراحل.

٢. يغشي الليل النهار.

٣. الليل يتعقب النهار شيئاً فشيئاً.

٤. تسخير الشمس والقمر والنجوم بأمر الله سبحانه.

٥. عود الخلق اليه.

٦. له الأمر.

٧. لا مدبّر لعالم الخلقة سواه.

٨. لا تأثير لأيّ علّةٍ أُخرى في العالم (بمعنى الشفيع) إلّا بأذنه.

٩. إنّ موجوداً متعالياً يملك هكذا مظاهر من القدرة، فهو عظيم رفيع المرتبة لا متناهٍ بالفعل (فتبارك الله رب العالمين).

١٠. هكذا موجود عظيم أحق بالعبادة لا مخلوقاته (ذلكم الله ربكم).

وبملاحظة الأمور الثلاث الآتية:

أ. إنّ الاستواء في القرآن واللغة ناظر إلى الاستيلاء والسلطة.

ب. تميّز العرش من السرير، وإطلاق العرش بمرور الزمان على القدرة والعظمة على نحو الكناية.

ج. الحديث عن استواء الله على العرش في الآيات السبعة المتقدمة، كثيرا ما جاء مصاحباً لاستواء الله على العرش مع بيان مظاهر القدرة والعظمة الالهية.

وبالالتفات إلى الأصول الثلاثة لابدَّ أن نصل إلى المعنى الواقعي من قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

فهل القرآن عندما تحدّث بهذه الدقّة عن مظاهر القدرة الإلهيّة يريد بذلك الكلام على جلوس الله على السرير واقعاً؛ أو كان يهدف من ذلك معنى آخر؟

وهو إنّ خلق هذا العالم الوسيع الملازم للتدبير، لا الفلسفيّة يكون إلّا بإحاطة الله على عالم الوجود، كما أنَّه مهيمن على عرش القدرة وعلى سرير العزّة، ومستولٍ على عالم الخلقة، ويدبر عالم الخلقة بعرش القدرة لا يزاحمه

شيء ولا معين يقوده نحو تلك الجهة.

وبعبارة أُخرى لو كان الاستواء في جميع الموارد حاكياً عن السلطة والاستيلاء، لا الجلوس والقعود؛ وكان العرشُ في اصطلاح العرب مظهراً للقدرة والاعتماد عليه مظهراً لإدارة وتدبير البلاد، وأيضاً عندما يتعرّض القرآن لمظاهر القدرة (بأنّه فعل كذا وخلق كذا) يتحدّث عن استواء الله على العرش؛ فلابدَّ من القول بأنَّ المقصود من هذه الجملة هو بقاؤهُ على كرسيّ العزة والعظمة ليقوم بتدبير العالم؛ وهنا لا يحتاج إلى معين ولا ينازعه في ذلك أحدٌ.

وهذا النحو من التفسير لتلك الجملة يتوافق مع تمام الجمل السابقة واللاحقة؛ ويوجه جميع الجمل نحو نقطة واحدة، وإذا أطلق على هذا النوع من التفسير اسم التأويل فهو باعتبار أخذ العرش في هذه الآيات كناية عن القدرة؛ ومعناه اللغوي هو سرير الخشب أو الحديد، وهكذا تأويل غير مرفوض، والتأويل المرفوض هو الذي يتقاطع مع ظاهر الآية تماماً ومن الصدف إنّ ظهورها عموماً هو ما أشرنا اليه نفسه.

ومع ملاحظة الجمل السابقة واللاحقة فاذا فسّرنا تلك الجمل في جلوس الله على السرير بمعنى قد جلس على السرير أو استقر عليه واقعاً؛ ففي هذه الحالة سيكون للجملة معنى ركيك لا يوجد ما يساعد عليه لا القرائن الموجودة في الآيات تؤيده ولا العرف والأدب ولا العارف بالمحاورات؛ إذ هكذا تفسير لا يتناسب مع ما بعده وما قبله، ويتضح من هذا البحث المترامي الأطراف أنّ تأويل المتشابه ليس بمعنى حمل الآية على خلاف الظاهر بل هو الاستقصاء في تعيين المراد من خلال التدبر في الآية وسياقها.

وأمّا التأويل بمعنى حمل الآية على خلاف ظاهرها فهو تأويل باطل ولا يتمّ

إلَّا من خلال التفسير بالباطن، ولا يجوز أبداً للمفسر أن يحمل الآية على خلاف ظاهرها وظواهر القرآن حجّة كنصوصه. إلَّا أنَّ تحصل قرينة واضحة على خلاف الظاهر، وكان هذا النوع من التفسير على خلاف الظاهر متعارفاً بين العقلاء، من قبيل إطلاق العام وإرادة الخاص وتقييد مراده الجدّي، إلى هنا اتّضح لنا المنهج الصحيح في تفسير الكتاب السماوي، وقدمنا الأسلوب الأمثل لكشف مقاصد القرآن، والمحور في جميع ذلك يدور حول كشف المقاصد الإلهيّة.

والشيء الوحيد الذي يبقى في بحث تأويل الكتاب والسنّة هو اعتقاد فئة معينة بأنّ دلالة ظواهر الآيات على المقاصد ظنيّة تماماً وليست قطعيّة مع اعتقادهم أنَّ دلالة نصوص القرآن الكريم على المقاصد قطعيّة فقط.

وقد تطرقنا إلى ذلك في بحث أصول الفقه وأثبتنا أنّ كلا الدلالتين قطعيّة؛ مع فارق وهو المتكلّم لا يمكنهُ أن يطلب مني خلاف ما أراده بكلامه؛ وإذا حصل من هذا القبيل فيتّهم بالتناقض مع أنّه يمكنه فعل ذلك من خلال الظاهر بالنسق نفسه الذي تحدثنا عنه في أن يأتي بالعام والمطلق مع أنّ مراده الجدي خاصّ ومقيّد؛ ثُمَّ يصرح بعد ذلك بمراده الجدّي.

هذه هي النظريّة المعروفة بين الأصوليين مع أنَّه من وجهة نظرنا كلا الدلالتين قطعيّة؛ لكن لابدَّ من ملاحظة رسالة الظاهر ما هي؟ حتى يتم معرفة ما إذا كانت دلالتها على تلك الرسالة التي بعهدته قطعيّة أم ظنيّة؟

وقد ثبت في علم الأصول أنّ الإنسان له إرادتان.

الأولى: إرادة استعماليّة.

الثانيّة: الإرادة الجديّة.

ويقصد بالأولى استعمال اللفظ في معناه، ولكن الغرض من استعمال

اللفظ يمكن أن يكون لأحد الأمور الآتية:

أ. أولئك الذين يريدون به التفرقة.

ب. أن يطلق الشخص كلاماً معيّناً نتيجة خوفه أو خشيته من الطرف المقابل وهو ما يعبّر عنه بـ(التقيّة).

ج. أن يكون الداعي من كلامه الهزل والمزاح.

والرسالة التي تقع على عاتق الظواهر هي أن تضعنا باتجاه الإرادة الاستعماليّة، وأمّا بقيّة المراتب فهي لا تقع في عهدة الألفاظ أصلاً حتى نطلق تسميّة الظن على الظواهر لأجل احتمال دواعي الجدّ أو الهزل أو التقيّة، والدافع لهذا الصنف من الاحتمالات الموجودة في النصّ أيضاً هو الأُصول العقلائيّة؛ أي طريقة ورؤيّة العقلاء في المحاورات وغالباً ما يرون أنَّ الداعي من الكلام في إرادة الجدّ دون الخوف والتقيّة والهزل. وانطلاقاً من هذا فإنَّ الرسالة التي يحملها الظاهر والنصّ ذات نسق واحد؛ نعم وكما أنّنا قد أكّدنا ذلك سابقاً، لا يمكن حمل النصّ على خلاف معناه حتى يقول القائل ليس هذا هو المراد ويعدّه تناقضاً مع أنّه في الظواهر لو ادّعى المتكلم خلاف الظاهر لا يقبل منه.

والغرابة هي إنّنا لو تحدّثنا جميعاً مع بعضنا نستعمل بعضنا كلام بعضٍ آخر ومحاورتنا تحكي دلالة قطعيّة لا ظنيّة مع أنّنا نستخدم الظواهر في التعبير عن مقاصدنا في الغالب؛ فأولئك الذين يعتبرون دلالةَ ظواهر القرآن على المقاصد دلالةً ظنيّةً، يقلّلون من شأن القرآن الكريم ويخرجونه من دائرة كونه معجزةً قطعيّةً؛ ليظهروه على أنّه معجزة ظنيّة؛ لأنَّ قوام إعجاز القرآن الكريم في لفظه ومعناه، في جماليّة اللفظ من جهة وعلوّ المعنى من جهة أُخرى؛ فيعضد أحدهما الآخر؛ لإظهار الإعجاز، كلَّما كانت دلالة الظواهر على

◈ الشيخ السبحاني

المقاصد الالهيّة ظنيّة؛ فالنتيجة ستتبع أخسّ المقدمتين بالتأكيد؛ أي: أنّ إعجاز القرآن يكون ظنيّاً لا قطعيّاً.

والكلام حول تأويل الكتاب والسنّة أوسع بكثيرٍ ممّا تعرّضنا له هنا، فقد بُحِثت في علم الأُصول بشكلٍ أوسع فيما يرتبط بالعامّ والخاصّ والمطلق والمقيّد، والمنطوق والمفهوم، والناسخ والمنسوخ.

والحمد لله ربّ العالمين

الهوامش

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

(٢) سورة طه، الآيتان: ٥-٦.

(٣) سورة الاسراء، الآية:٩.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٥) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٦) مقدمة جامع التفاسير: ٩٦.

(٧) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٨) سورة الزخرف، الآية: ٨٦.

(٩) كتاب نقد الأعداد: ٥-٦.

(١٠) البرهان في علوم القرآن، ٢: ١٤٦.

(١١) الاتقان في علوم القرآن، ٢: ٢٤.

(١٢) منشور جاويد (ميثاق الخلود)، ٣: ٢٧٦- ٣١٠.

(١٣) تفسير الثوري، ١: ٦.

(١٤) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

(١٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(١٦) تفسير ابن كثير، ١: ٥.

(١٧) الكافي، ٤: ٥٩٦.

(١٨) سورة الانعام، الآية: ٧٦.

(١٩) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.

(٢٠) سورة الرحمن، الآيتان: ١٩-٢٠.

(٢١) مرآة الانوار: ٤.

(٢٢) ينظر: لسان العرب مادة (آل).

(٢٣) بصائر الدرجات في فضائل آل محمد ١: ١٩٦.

(٢٤) الكافي ١: ١٩٢.

(٢٥) سورة الرعد، الآية:٧.

(٢٦) تفسير فرات الكوفي ٢٠٦.

(٢٧) بحار الانوار، ٣٥: ٤٠٤.

(٢٨) سورة التوبة، الآية: ١٢.

(٢٩) حول هذا الموضوع راجع كتاب «نور الثقلين»،٢: ٤٨٢ – ٤٨٥.

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) الاحتجاج: ٨٣.

(٣٢) سورة آل عمران، الآية: ٧ .

(٣٣) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٣٤) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٣٥) سورة الاسراء، الآية: ٢٣.

(٣٦) سورة طه، الآية: ٦٥.

(٣٧) سورة الزخرف، الآية: ١٣ – ١٢.

(٣٨) سورة الشورى، الآية: ٧.

(٣٩) سورة الانعام، الآية: ١٠٣.

(٤٠) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٤١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٤٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣ .

(٤٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٤٤) سورة الزخرف، الآيتان: ١٢-١٣.

(٤٥) سورة المؤمنون، الآية: ٢٨.

(٤٦) سورة هود، الآية: ٤٢.

(٤٧) سورة النمل، الآية: ٢٣.

(٤٨)

انــت رأيــت عرشــا وانــا رأيــت شــؤما وانت رأيت على عرشك عاج وانا رأيت قبضة عظام

(٤٩) سورة النمل، الآية: ٣٨.

(٥٠) سورة الصافات، الآيتان: ٤٣-٤٤.

(٥١) سورة الإنسان، الآية:١٣.

(٥٢) سورة الاعراف، الآية: ٥٤.

(٥٣) سورة يونس، الآية: ٣.